وقف مركز مكة العالمي للهدى القرآني
هدى للناس
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

هدايات القرآن الكريم في بناء المشترك الإنساني

اسم الباحث/ـة

د/ حسين جيلالي شنينة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين؛ **أما بعد:**

فهذه مقاربة فكرية لنظرية (**المشترك الإنساني**) انطلاقاً من هدايات القرآن الكريم، حاولت من خلالها بيان مفهوم النظرية وأهميتها في الظروف الراهنة، ثم ذكر أسس وقواعد البناء القرآني للنظرية وكيفية الاستفادة منها، معتمداً في ذلك أدوات التحليل المنهجي، ومناقشة النقد العلمي لبعض القضايا المهمة، مستعينا بآيات القرآن الكريم، ومستنيرا بفُهُوم أساطين التفسير، ليكون بحثاً موجزاً حول: **هدايات القرآن الكريم في بناء المشترك الإنساني**.

أهمية الموضوع: تكمن أهمية هذا الموضوع في أمور كثيرة منها:

١. أنه يتعلق بمستقبل الإنسان ووجوده في هذا الكون.

٢. أنه يقدم رؤية جديدة لمختلف القضايا العالمية الكبرى من زاوية التقارب والائتلاف الإنساني.

٣. أن البحث ينطلق من هدايات القرآن الكريم طلبا للتوفيق والنجاح.

٤. أن الموضوع ذو أولوية قصوى لما تفرضه الظروف العالمية من مشكلات إنسانية متزايدة في كل مكان، فهو يعد من العلم الواجب نشره لأجل ضرورة الوقت .

أهداف البحث: يهدف البحث إلى:

١. بيان نظرية المشترك الإنساني وأهميتها من المنظور القرآني.

٢. استنباط قواعد قرآنية في بناء المشترك الإنساني، تحدد المنهج الرباني في رعاية حقوق الإنسان وحماية آدميّته من الفساد والانحراف.

٣. طرح أفكار جديدة قد تسهم في حل المشكلات الإنسانية.

الدراسات السابقة: في الحقيقة أن البحث في فكرة (**المشترك الإنساني**) هو في تزايد مستمر، وذلك راجع لأهمية الموضوع أولاً، ثم للظروف السياسية ثانياً،

حيث إن بعض دول العالم كالصين مثلاً تسعى جاهدة لأجل تشكيل ما يسمى بـ"**رابطة المصير المشترك للبشرية**"، وهذا ما جذب الكثير من الباحثين للبحث في الموضوع بطرح عالمي جديد.

فممن سبقني في بحث هذا الموضوع الأستاذ محماد بن محمد الرفيع، وذلك في مؤلفه القيم: "**النظر الشرعي في بناء الائتلاف وتدبير الاختلاف**"، حيث عمل جاهداً على تأصيل فكرة المشترك الإنساني من القرآن والسنة ومقاصد الشريعة الإسلامية. ومن الباحثين أيضاً الأستاذ أحمد الفراك في كتابه: "**المسلمون والغرب والتأسيس القرآني للمشترك الإنساني**"، وهو كتاب ماتع جمع فيه صاحبه بين الطرح الشرعي والبحث الفلسفي، محاولاً بيان أن هناك أصولاً جامعة لعلاقة الشرق بالغرب، فرضتها الخلفية التاريخية والدينية والاجتماعية.

أما إضافة هذه الورقة البحثية فهي في التركيز على الأسس والقواعد القرآنية في بناء المشترك الإنساني، من زوايا متعددة تختلف عن بحث السابقين من جهة الاستنباط والاختصاص.

إشكالية البحث: يدور هذا البحث حول سؤال محوري، كالآتي:

كيف يؤسس القرآن الكريم لفكرة المشترك الإنساني؟. وهنا تنشأ أسئلة فرعية أخرى تابعة له، كما يأتي:

١. ما المقصود اليوم بنظرية المشترك الإنساني؟ وهل تتناسب مع مقاصد القرآن الكريم؟.

٢. وهل يمكن تحديد رؤية واضحة للمشترك الإنساني من خلال هدايات القرآن؟.

٣. ما هي أهم المبادئ والمرتكزات القرآنية في بناء المشترك الإنساني؟.

منهج البحث: اعتمد الباحث في تحرير هذه المقالة المنهج الوصفي التحليلي، حيث رصد كل الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع، واصفاً مجالاتها ومعانيها،

ومحللاً نماذجها وتطبيقاتها، كل ذلك من أجل إبراز قيمة الإنسان ومكانته عند الله تعالى.

عناصر البحث: للإجابة على الإشكالية السابقة، وتحقيق أهداف البحث، سأعالجه من خلال العناصر الآتية:

أولاً: مفهوم المشترك الإنساني.

ثانياً: وحدة النوع الإنساني.

ثالثاً: الفطرة الإنسانية.

رابعاً: المصير المشترك.

خامساً: الأخلاق الجامعة.

سادساً: وحدة الرسالات.

خاتمة.

أولاً: مفهوم المشترك الإنساني:

لقد حظي هذا الموضوع باهتمام واسع في الأوساط العلمية مؤخراً، وذلك وفقا للسياقات والأحداث السياسية المعاصرة، مما يضطرنا إلى تحديد الإطار المفاهيمي للمصطلح وبيان مراده واستعمالاته بشكل عام.

في الحقيقة أصل هذا المصطلح: (**المشترك الإنساني**) هو مركب إضافي من كلمتين "**مشترك**" و"**إنساني**"؛ فالكلمة الأولى تفيد معنى المخالطة والمقارنة[١] التي هي ضد التفرد والخصوصية، تقول العرب: "طريق مشترك يستوي فيه الناس"[٢] أي مباح لهم؛ والكلمة الثانية: "إنساني" اسم جنس لجميع البشر كما هو معروف.

وعلى هذا الأساس اختلف الباحثون في تحديد المراد بمفهوم "**المشترك الإنساني**"، حيث يراه بعضهم أوسع ما يمكن جعله أرضية مشتركة بين البشر، فمثلا يرى الأستاذ أحمد الفراك المشترك الإنساني بكونه المنطق: "الذي يراعي القواسم الكبرى التي يتفق حولها الجميع"[٣].

بينما يرى آخرون أن المقصود بهذا المصطلح هو القيم والمبادئ العامة المشتركة بين الإنسانية، يقول الدكتور محماد الرفيع: "نريد **بالمشترك الإنساني** تلك القيم الإنسانية الموجودة في جوهر كل الأديان والحضارات والمدارس الفكرية"[٤].

---

[١] ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٣/ ٢٦٥ .

[٢] ابن منظور، لسان العرب، ١٠/ ٤٤٩ .

[٣] المسلمون والغرب والتأسيس القرآني للمشترك الإنساني، أحمد الفراك، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان-الأردن، ط١= ٢٠٢١م، ص٣٦ .

[٤] النظر الشرعي في بناء الائتلاف وتدبير الاختلاف، رفيع محماد، دار السلام، القاهرة، ط١= ٢٠١٢م، ص ١٧ .

وإلى هذا المعنى ذهبت الباحثة ربيعة سحنون في تحديد مصطلح المشترك الإنساني أن المقصود هو تلكم "القيم المشتركة بين الناس، على اختلاف انتماءاتهم الحضارية والمذهبية والثقافية والدينية"[1].

ولا شك أن هذه القيم والمبادئ هي جزء من المشتركات الإنسانية، ولكن هناك أمور كثيرة هي من قبيل المساحات المشتركة التي تقرب بين الشعوب، ونحن في أمس الحاجة إليها.

وبين هذا وذاك أرى أن الأفضل هو حصر مفهوم المشترك الإنساني في إطار الأفكار والتصورات فقط، وهذا ما اختاره الدكتور وائل الحارثي: "بأن **المشترك الإنساني** هو مجموع الأفكار (التصورات، المبادئ، المفاهيم) التي يتفق أو يتوافق ويتواطأ الناس، كلّهم أو جُلّهم إلا ما شذّ، على القول بها فطرة وعقلاً واجتماعاً، وما يترتب عليها من حقوق وواجبات"[2].

وهذا المفهوم يتوافق كثيراً مع الهدف المنشود من المصطلح، وهو مد جسور التعاون والتفاهم من أجل مصلحة الجميع، وهذا لا يكون إلا على مستوى الأفكار والتصورات بشكل عام، فيدخل في ذلك القيم والمقاصد الكلية والمفاهيم والتحديات العالمية، وجملة من القضايا التي تهم البشر جميعاً.

ثانياً: وحدة النوع الإنساني:

ذلك أن البشر جميعا من أولهم إلى آخرهم ينتهي أصلهم ونسبهم إلى أب واحد وأم واحدة، أي آدم عليه السلام وزوجته حواء، كما أن حواء خلقت من آدم، فجميع البشر هم بنو آدم، وآدم خلقه الله تعالى من تراب، أي أنهم

---

[1] المشترك الإنساني تشريع إلهي، ربيعة سحنون، مجلة إيقاظ، مجلد ١، عدد١، أفريل: ٢٠٢٠م، ص٩٦-١٠٠.

[2] التأسيس المقاصدي لمفهوم المشترك الإنساني، وائل الحارثي، مجلة المعيار، مجلد ٢٥، عدد ٦٢، ديسمبر: ٢٠٢١م، ص٢٦٤ .

في النسب سواء، إخوة في الإنسانية، وهذه حقيقة مهمة يترتب عليها أشياء كثيرة تتعلق بحياة الناس وشؤونهم في الدنيا والآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [سورة النساء، الآية: ١].

ويقول تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٩٨].

ويقول أيضاً: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٨٩].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٦].

في هذه الآيات يخبرنا الله تعالى عن مبتدأ الإنسان وأصله، ثم كيف استمر النوع الإنساني وانتشر في الأرض، وأن ذلك كله راجع إلى نفس واحدة أي إنسان واحد هو آدم عليه السلام، وهذا يقتضي أموراً مهمة، منها:

١. **مراعاة حقوق الإنسان**؛ وذلك بموجب الأخوة الإنسانية، فيجب للإنسان على أخيه حقوق مهمة، كالحق في الحياة الكريمة، والحق في حرية الاعتقاد والتفكير، والحق في ضروريات الحياة ونحو ذلك، وهذا بمجرد انتمائه للنوع الإنساني، مهما كان جنسه أو لونه أو لغته أو معتقده...، كما يجب عليهم التناصر والتعاون من أجل ذلك كله،

يقول الطبري: "وصف -تعالى ذكرُه- نفسَه بأنه المتوحد بخلق جميع الأنام من شخص واحد، وعرَّف عباده كيف كان مبتدأ انتشائه ذلك من النفس

الواحدة، مُنبهَهم بذلك على أن جميعَهم بنو رجل واحد وأم واحدة، وأن بعضهم من بعض، وأن حق بعضهم على بعض واجبٌ وجوب حق الأخ على أخيه؛ لاجتماعهم في النسب إلى أب واحد وأم واحدة، وأن الذي يلزمهم من رعاية بعضهم حق بعض ،وإن بعُد التلاقي في النسب إلى الأب الجامع بينهم، مثل الذي يلزمهم من ذلك في النسب الأدنى، وعاطفاً بذلك بعضَهم على بعض، ليتناصفوا ولا يتظالموا، وليبذل القويُّ منهم من نفسه للضعيف حقه بالمعروف على ما ألزمه الله له"[١].

ويقول ابن كثير: "ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة؛ ليعطف بعضهم على بعض، ويحننهم على ضعفائهم"[٢].

٢. **المساواة في الحقوق والواجبات**، فلا فضل لأحد على آخر إلا بالإيمان والتقوى، وقد جاء هذا صريحا في قوله تعالى: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"[سورة الحجرات: ١٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: "يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى"[٣]، وقال أيضا ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم،

---

[١] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ط١= ٢٠٠١م، ٣٣٩/٦ .

[٢] تفسير القرآن العظيم، إسماعيل ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض –السعودية، ط٢= ١٩٩٩م، ٢/ ٢٠٦ .

[٣] مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت –لبنان، ط١= ٢٠٠١م، حديث رقم: ٢٣٤٨٩، ٣٨/ ٤٧٤ .

ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1].

وبهذه القاعدة قد يكون العبد أفضل من سيده، والحقير في نظر الناس عظيماً عند الله تعالى وهكذا...، ذلك أن الناس وإن اختلفت مراتبهم ومنازلهم فهم في الحقيقة أكفاء متماثلون.

الناسُ مِن جِهَةِ التِمثالِ أَكفاءُ أَبوهُمُ آدَمُ وَالأُمُ حَـــــوّاءُ
نَفسٌ كَنَفسٍ وَأَرواحٌ مُشاكَلَـةٌ وَأَعظُمٍ خُلِقَت فيها وَأَعضاءُ
وَإِنَّما أُمَّهـــاتُ الناسِ أَوعِيَـــةٌ مُستَودِعاتٌ وَلِلأَحسابِ آباءُ
فَإِن يَكُن لَهُمُ مِن أَصلِهِم شَرَفٌ يُفاخِرونَ بِهِ فَالطيـــنُ وَالماءُ

وهذه أرضية مشتركة جعلت دين الإسلام قوة جذب كبيرة، يدخل فيه الناس أفواجاً، والسبب في كثير من الأحيان أنه يخاطب الناس جميعاً بنفس الأبعاد والمسافات، دون تفريق أو تمييز، كما أنها تحرر العقول من كل الأوهام والادعاءات الباطلة، التي تدعو إلى تفضيل عرق على عرق، أو قوم على قوم، وقد جاء هذا صريحاً في إبطال دعوى اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَ ﴾ [سورة المائدة: ١٨].

٣. وحدة الاعتقاد؛ لأن التفكر في منتهى أصل البشرية، يقود إلى النظر والبحث في مسألة الخلق والخالق، وهذا يعزز رغبته في قبول أصل الاعتقاد، وهو التوحيد والإيمان بربوبية الخالق،كما قال سبحانه:﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢]، قال ابن عاشور: "نودي جميع الناس، فدعاهم الله إلى التذكر بأن أصلهم واحد، إذ قال: اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة دعوة تظهر فيها المناسبة بين وحدة النوع

---

[1] صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، حديث رقم: ٢٥٦٤ .

ووحدة الاعتقاد"[1].

٤. **الكرامة الإنسانية** أي: أن الإنسان مخلوق محترم مكرم عند الله تعالى، وهذه حقيقة ظاهرة في القرآن الكريم، تكررت في آيات ومناسبات عديدة، وورد فيها بيان واضح لأوجه التكريم والحفاوة والتعظيم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [سورة الإسراء: ٧٠] .

فمن أوجه تكريم الإنسان مثلاً: أن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة، بشكل فريد من نوعه، قائماً منتصباً يمشي على قدميه، بعيداً عن القذر والوسخ، يأكل بيديه أزكى الطيبات ويشرب الماء الزلال النقي، ويتحرك باستعمال أطرافه العلوية والسفلية في تناسق عجيب، ويتكلم بطريقة معبرة لا تشبه أصوات المخلوقات الأخرى، وخلق الله له السمع والبصر والعقل، يفكر ويصنع ويبدع...إلخ، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة التين: ٤]، وقال أيضا: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة الانفطار: ٧-٨].

ومنها أن الله تعالى سخر له كل شيء، وسلّطه على مخلوقاته؛ فجعله سيداً حاكماً عليها، وأعطاه كل ما يحتاج إليه في حياته من أدوات ووسائل ظاهرة وباطنة، قال سبحانه: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٤]، وقال أيضاً: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [سورة لقمان: ٢٠]، كما عظّم سبحانه الاعتداء عليه بشكل عام، سواء في جسده أو عرضه أو ماله أو دينه، قال الله تعالى: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ

---

[1] التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ط١=١٩٨٤م، ٤/ ٢١٤ .

فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [سورة المائدة: ٣٢] .

وإذا كان ذلك كذلك فإن الذات الإنسانية محترمة جداً في الإسلام، يشهد لهذا نصوص الوحي من القرآن والسنة، ويؤيده عمل السلف في وقائع كثيرة، منها ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: "كان سهل بن حنيف، وقيس بن سعد قاعدين بالقادسية، فمروا عليهما بجنازة، فقاما، فقيل لهما إنها من أهل الأرض -أي من أهل الذمة-، فقالا: إن النبي ﷺ مرت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: «أليست نفسا»"[1]، ففي هذه النازلة إبطال لكل الدعاوي المغرضة التي تنتقص الإنسان، وتحط من قيمته، وفيها أيضاً ردم لكل الهوات السحيقة بين الشعوب والأمم، التي تذكي مشاعر العداوة والبغضاء بين الناس، وتؤجج الصراعات والحروب المدمرة للإنسانية، والواقع المعاصر والتاريخ يشهدان بفداحة الأمر وخطورته.

ثالثاً: الفطرة الإنسانية:

وهذه مساحة كبيرة يجتمع فيها الناس جميعا، وهي قاعدة قرآنية في بناء المشترك الإنساني، ونقصد بالفطرة الإنسانية هنا: "النظام الجِبلّي الذي أوجده الله في الإنسان جسدا وعقلا"[2] قبل استبداله وانحرافه بالأهواء والأوهام، وكذا العوائد والمألوفات التي أدخلها عليه أهل الفساد.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة الروم: ٣٠] .

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، حديث رقم: ١٣١٢ / وصحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة، حديث رقم: ٩٦١ .

(٢) جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، جمع وتحقيق: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، الأردن، ط١= ٢٠١٥م، ١/ ٦٧ .

وقال تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ [سورة الأعلى: ١-٢-٣].

وقال سبحانه على لسان موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [سورة طه: ٥٠].

بعد التأمل والنظر في معنى هذه الآيات نجد أن الله تعالى يرشد إلى أصل الفطرة، حيث لا يمكن لأحد أن يدفعه أو يتجاوزه؛ لأنه موضع اتفاق بين البشر جميعاً، ولهذا قال سبحانه: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ، أي: خلقهم على نظام بشري يختلف عن سائر المخلوقات الأخرى، يُمكِّن الإنسان من الفهم الصحيح والعمل السليم، وهو أصل جامع لمختلف الذهنيات في العالم.

ولهذا كله وجب أن نراعي قاعدة الفطرة الإنسانية كمشترك إنساني، من أجل التفاهم والتخاطب بين البشر، قال ابن عاشور: "وفي هذا تنبيه للعلماء بأن عليهم أن يسايروا هذا الوصف الجامع ويجعلوه رائدهم وعاصمهم في إجراء الأحكام، بمنزلة إبرة المغناطيس لربان السفينة"[1].

وعلة ذلك أن الفطرة تجمع بين جوانبها مشتركات كثيرة بين الناس، وهي تمثل جسوراً قوية للتعاون والائتلاف، كما أنها منطلقات مهمة لتصحيح المفاهيم والمعتقدات.

وإذا كان ذلك كذلك فلا بد من شرح لقاعدة الفطرة، حتى نقف على أهم جوانبها وصورها، وما يمكن أن نستفيد منها كمشترك صحيح بين البشر، وبيان ذلك أن الفطرة تتعلق بذات الإنسان أي: جسده، وعقله، وروحه، وهي ثلاثة أشياء يتركب منها ويتأثر بها إيجاباً وسلباً، **وتوضيح ذلك فيما يأتي:**

أ- **الفطرة الجسدية:** وهي الغرائز البشرية التي تتعلق بالجسد، يمكن وصفها أنها أحوال أو انطباعات جبلية تشبه المزاج المتحكم في الإنسان، مثل: غريزة

---

[1] أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط٢= ١٩٨٥م، ص ٤٢ -٤٣ .

المحافظة على الذات؛ فيدخل فيها أشياء كثيرة، كغريزة البحث عن الطعام والشراب، وغريزة الخوف، والقلق، والدفاع عن النفس...إلخ، ومثلها غريزة الإنجاب: وتدخل فيها غريزة الأمومة، والغريزة الجنسية، وغريزة التكاثر ونحو ذلك.

ب- **الفطرة العقلية:** وهي قدرات عقلية تشبه الأدوات المنطقية يتمكن الإنسان بواسطتها من وضع مسلمات عقلية، ينطلق منها إلى الاستنباط والتركيب والاستنتاج ...إلخ، كاستنتاج المسبَّبات من أسبابها، والنتائج من مقدماتها، وترجيح الأشياء من أدلتها، فإن حاول الإنسان استنتاج أمر من غير سبب، أو ترجيح رأي بلا مرجح، كان محاولا خلاف الفطرة العقلية.

ويشهد لهذا قصة الأعرابي لما سئل: بم عرفت ربك؟ فقال: "البعرة تدل على البعير، وآثار الأقدار تدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدل على اللطيف الخبير"، وفي هذا دلالة واضحة أن الفطرة العقلية تُلجئ الإنسان إلى معرفة الخالق ضرورة، بحيث لو حاول دفع ذلك عن نفسه وقع في الحرج الشديد، وخاصة في حال الكرب والشدة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا ﴾[سورة يونس: ١٢]، وقال أيضاً: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة النحل: ٥٣]، وقال: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [سورة الإسراء: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [سورة الأنعام: ٦٤]، وقال أيضاً: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة يونس: ٢٢].

وجاء في سنن الترمذي عن عمران بن حصين، قال:" قال النبي ﷺ لأبي: «يا حصين كم تعبد اليوم إلهاً ؟» قال أبي: سبعة ستة في الأرض وواحداً في السماء. قال: «فأيّهم تعد لرغبتك ورهبتك؟» قال: الذي في السماء"[1]. **يقصد الله الخالق**، وهذا الاعتراف منه هو بلسان الفطرة السليمة، ويؤكد هذا المعنى أكثر ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء»[2] أي: سليمة من العيوب، والمعنى أن الأصل في اعتقاد الإنسان السلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول للعقائد الصحيحة، كما ورد ذلك صريحاً في صحيح مسلم عن النبي ﷺ عن رب العزة قوله: «خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»[3].

ت- **الفطرة القلبية**: وهي الوجدان أو الشعور الموجود في النفس البشرية، حيث يُوجه القلب إلى الميل الطبيعي أو ما يسمى أحيانا بالضمير الحي؛ فيتحكم في الأعمال القلبية إيجاباً وسلباً، كمحبة الخير، ورحمة الضعيف، والصدق مع النفس، والتأثر بالخير والشر...إلخ، ولهذا تجد الإنسان يميل بطبعه الفطري إلى محبة الحسن والتقرب إليه، كما ينفر من السيئ وينزعج منه، وهذا التحسين والتقبيح فطريان في القلب. قال الصنعاني: " وَأهل الأقطار قاطبة يمدحون المحسن، ويذمون الْمُسِيء بعقولهم من دون معرفَة الشَّرَائِع، بل من ميز من الصّبيان مدح من أحسن

---

[1] سنن الترمذي، أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٣٤٨٣ .

[2] صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، حديث رقم: ١٣٨٥ / وصحيح مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، حديث رقم: ٢٦٥٨ .

[3] صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، حديث رقم: ٢٨٦٥.

، وذمّ من أساء"[1].

ومثال ذلك مدح الناس لحاتم الطائي، لما بلغهم عنه من إحسانه وكرمه، كما مدحت قريش محمداً ﷺ قبل بعثته لمناقبه ومحاسنه، وسموه الصادق الأمين، وبالمقابل نجد أن الناس ذموا مادرا لبخله وسوء تصرفه، وذموا أيضاً عرقوباً لكذبه وخلف مواعيده، وهكذا جرى حال الناس.

إضافة إلى ذلك فإن كل إنسان يشعر بوازع في قلبه، يتابعه ويقومه من الداخل، يأمره وينهاه، ويرغبه ويزجره، ويبشره ويلومه، ويشهد لهذا قوله ﷺ لوابصة بن معبد الأسدي "«جئت تسأل عن البر والإثم؟» قال: قلت: نعم، قال: فجمع أصابعه فضرب بها صدره، وقال: «استفت نفسك، استفت قلبك يا وابصة -ثلاثا-؛ البِرُّ ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»"[2] .

كما أن قلب الإنسان ينشرح ويفرح بفعل الخيرات والحسنات، ويضيق وينقبض بفعل المنكرات والسيئات، وهذا مشاهد في واقع الناس لا يمكن إنكاره، بل نجد أحيانا أحدهم قد ينعم في الترف وينغمس في الملذات والشهوات، لكن قلبه يكاد ينفجر أسى وألماً، وربما أداه ذلك إلى اليأس والإحباط فينتحر ويقتل نفسه، وسبب ذلك أن قلب الإنسان لا يأنس ولا يطمئن إلا بذكر خالقه ومعرفته ومحبته، فإذا ابتعد عن ذلك ضاق القلب وتألم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [سورة طه: ١٢٤]، قال ابن القيم: "...فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب، وغذاء

---

[1] إجابة السائل شرح بغية الآمل، محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق: القاضي حسين بن أحمد السياغي والدكتور حسن محمد مقبولي الأهدل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١= ١٩٨٦م، ص٢٢٢ .

[2] مسند الإمام أحمد، حديث رقم: ١٨٠٠٦، ٢٩/ ٥٣٢ ؛ وسنن الدارمي، كتاب البيوع، باب دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، حديث رقم: ٢٥٧٥ .

الأرواح، وليس للقلب لذة، ولا نعيم، ولا فلاح، ولا حياة إلا بها، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت سمعها، والأنف إذا فقد شمه، واللسان إذا فقد نطقه"[1].

ولهذا يمكن القول إن الفطرة القلبية هي مظلة كبيرة يشترك فيها الناس جميعاً ، سواء على مستوى العاطفة الصادقة، أو الضمير المشترك، أو في جانب آخر وهو صفاء القلب وطهارته.

إن الناظر في مفهوم الفطرة الإنسانية، والمتفحص لمجالاتها ومقوماتها، سيجد عناصر كثيرة جدا يمكنها أن تبني مشتركات إنسانية مهمة، قد يستفيد منها البشر في بناء السلم العالمي، أو على الأقل وضع حد ما للحروب والصراعات بين الشعوب والأمم، مما يضمن مستقبلا آمنا للأجيال القادمة، كما يستفاد منها في مجال التعاون الفكري والعلمي، والاستفادة أيضا من الخبرات والحكمة الإنسانية .

رابعاً: المصير المشترك[2]:

ذلك أن البشر وإن اختلفوا في أشياء كثيرة، فإنهم غالبا ما يجتمعون تحت مسمى واحد، وهو: المصير المشترك الذي يقضي بوجود هدف واحد، وتحدٍ واحد، وخطر واحد، أي: يشترك فيه كل الناس، وهذا ما يسمى اليوم بالمشكلات الإنسانية أو العالمية، التي تهدد وجود البشرية، وتفرض على الناس جميعا وجوب التعاون والتضامن لتعزيز فرص النجاح، وطريق ذلك التركيز على المصير المشترك من أجل التقارب والاجتماع، وهذا أسلوب كثير في القرآن الكريم، **من ذلك مثلاً**:

---

[1] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، المغرب، ط١= ١٩٩٧م، ص٢٣٤ .

[2] أقصد المصير المشترك في الدنيا؛ لأن هناك ذهنيات من الناس لا تؤمن باليوم الآخر.

قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ٥٦].

وقوله أيضاً: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [سورة الأنفال: ٢٥].

وقوله كذلك: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [سورة هود: ٦١].

وقوله جل جلاله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٧].

وقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة يس: ٦١].

وقوله أيضاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [سورة الحجرات: ١٣].

وقوله أيضاً: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [سورة فاطر: ٣٢-٣٣]

إن الناظر لهذه الآيات والمتأمل فيها سيجد إشارات واضحة إلى معنى الجامع المشترك والاعتداد به والتوقف عنده، مما يجب على المخاطبين الاهتمام به ومراعاته على جميع المستويات، ذلك أن مصيرهم جميعا واحد، يقول الشيخ محمد رشيد رضا: "ليعلم الناس أن سنة الله في الاجتماع الإنساني أن تكون الأمم متكافلة، يعتبر كل فرد منها سعادته بسعادة سائر الأفراد وشقاءه بشقائهم... وهذا التكافل في الأمم هو المعراج الأعظم لرقيها؛ لأنه يحمل الأمة التي تعرفه على التعاون على الخير والمقاومة للشر فتكون من المفلحين"[1].

وهذا المصير المشترك ينبغي العمل من أجله على مستويين:

---

[1] تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١= ١٩٩٠م، ٢٦٧/١.

أولهما: الخطر المشترك؛ الذي يهدد العالم والبشرية بالفناء والفساد والخراب، وهي أخطار متنوعة منها:

١. **عداوة الشيطان للإنسان:** حيث يمثل أصل الشر وقوته، ذلك أنه يسعى لفساد الإنسان وهلاكه، ولهذا فإن التحذير من الشيطان وأوليائه كثير جدا في القرآن الكريم، بل إن المتأمل في أنواع الشرور في العالم سيجد في كثير من الأحيان سببه عداوة الشيطان للإنسان.

٢. **ما يهدد الأمن والسلم العالمي:** كالحروب العالمية، وكامتلاك الأسلحة النووية وأسلحة الدمار الشامل، وكانتشار الجماعات المسلحة التي تنشط في شكل عصابات خطيرة، وكالإرهاب العالمي بشتى أنواعه وأشكاله، والمنظمات العالمية لترويج الأسلحة وكذا المخدرات والممنوعات الضارة بالإنسان.

٣. **ما يهدد الكوكب:** من تغيرات تطرأ عليه كالاحتباس الحراري، والتلوث البيئي الذي يفسد الهواء والماء والثمار...إلخ.

٤. **ما يهدد صحة الإنسان:** كالأوبئة المنتشرة بسبب العدوى، مثل وباء كورونا، أو مرض الالتهاب الكبدي الحاد، أو مرض متلازمة نقص المناعة المكتسبة وغيرها.

وثانيهما: البناء الحضاري المشترك؛ وهذه ضرورة ملحة تقتضيها ظروف الزمان والمكان؛ لأن البشر مهما تناءت بهم الأهداف والأفكار فإنهم يجتمعون في فكرة عمارة الأرض والاستفادة منها، فما يصيب الإنسانية من خير أو شر في الحاضر والمستقبل لابد أن يصيب الناس كافة.

وهذا يعد من أعظم المشتركات الإنسانية التي تفرض على المعمرين في هذه الأرض، أن يتعاونوا ويتآزروا في عمارتها وتنميتها على جميع المستويات، فكريا ومعرفيا، دينيا واجتماعيا، اقتصاديا وسياسيا...إلخ، بداية من الحفاظ على المكتسبات البشرية، ثم العمل على تنمية المواهب والقدرات العامة، إلى التشجيع على البحث العلمي والتطوير التكنولوجي.

إن المجتمع البشري اليوم مأمور من أكثر وقت مضى بمد جسور التواصل والتعاون الإنساني، من أجل عمارة الأرض وحماية المسيرة الحضارية للبشرية بكل جوانبها المختلفة، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يضمن استمرار الحضارة وتقدمها في المستقبل، يقول الرئيس الصيني شي جين بينغ[1] : "إن رابطة المصير المشترك للبشرية مثل اسمها، تعني ارتباط مستقبل ومصير جميع الأمم والدول ارتباطا وثيقا، حيث ينبغي لها المشاركة في السراء والضراء، والعمل سوياً لجعل كوكب الأرض الذي ولدنا عليه ونعيش عليه عائلة كبيرة متناغمة، وترجمة تطلّعات الشعوب لحياة أفضل على أرض الواقع" [2].

خامساً: الأخلاق الجامعة:

وهي مجموعة من القيم والمبادئ تتحكم في سلوك الإنسان وعاطفته، مع نفسه أولاً ثم مع الآخرين، بحيث تكون موضع توافق ورضى بين الناس، تؤيدها الفطرة الإنسانية، وتقرها جميع الشرائع والأديان، كما تعد من أهم مكتسبات النفس البشرية، وأحد المعايير المهمة في مسألة التقبيح والتحسين.

وعلى هذا الأساس كانت من أهم المشتركات الإنسانية التي يجب الاستفادة منها في التقريب والتوافق بين الناس، جاءت الآيات القرآنية تدعو إلى توظيفها واستغلالها في مناسبات كثيرة، **أذكر منها مثلاً:**

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا ﴾ [سورة النحل: ٩٠-٩١].

---

[1] هذه الكلمة ضمن خطاب الرئيس الصيني، من أجل إنشاء رابطة المصير المشترك للإنسانية، والذي ألقاه في الثامن عشر من يناير ٢٠١٧م، بمقر الأمم المتحدة في جنيف.

[2] http://www.chinatoday.com.cn/ctarabic/se/2017-10/01/content_747646.htm

وقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩].

-وقوله سبحانه: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

وقوله عز وجل: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ [سورة البقرة: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ ﴾ [سورة القلم: ٤].

وقوله أيضاً: ﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢ ﴾ [سورة الرعد: ١٩ إلى ٢٢].

وقوله تعالى في سورة الإسراء من الآية:٢٣ ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ﴾ ....إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ الآية: ٣٩.

إن المتأمل في هذه الآيات وغيرها يدرك أهمية الأخلاق ومنزلتها عند الله تعالى، فلا يمكن لمؤمن أن يهملها أو يغفل عنها إذا أراد الله والدار الآخرة، ومن جهة أخرى فهي تخاطب ضمير الإنسان وعاطفته، من أجل أن يعود إلى نفسه فينتبه من غفلته، ويرى سلوكه وعمله كإنسان يختلف عن غيره؛ لأن ذلك سيرشده إلى سؤال الأخلاق أو ما يعرف بالوعي الأخلاقي، الذي يعد مشتركاً إنسانياً أو موضع اتفاق بين البشر جميعاً، مما يجعله مركز هداية يمكن الاستهداء به في مجالات كثيرة، وقانونا يجب التحاكم إليه في قضايا متعددة، وقد سماه الله تعالى ميثاقاً غليظاً، وذلك في قوله: ﴿ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١ ﴾ [سورة النساء:٢١] .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذا الميثاق الأخلاقي يمكن الاستفادة منه اليوم، من أجل إحياء الضمير العالمي وابتعاثه من جديد؛ لما نراه من فساد وانحراف في الموازين، بسبب هيمنة قوى الاستكبار والظلم عليه، فكان من الضروري توجيه خطاب أخلاقي للعالم، من أجل إصلاحه وحمايته والدفاع على مقوماته ومكتسباته، وهو في الحقيقة خطاب قرآني خالد، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ [سورة الأعراف: ٥٦].

وفي هذا الصدد يقول الدكتور طه عبد الرحمن: "...فهذه الأخلاق لا تخص صلاح الفرد الواحد ولا صلاح الأمة الواحدة، وإنما تبتغي صلاح البشرية قاطبة، بل تبتغي صلاح جميع المخلوقات التي في عالم الإنسان"[1].

سادساً: وحدة الرسالات:

ذلك أن الأنبياء جميعاً من لدن نبي الله آدم إلى نبينا محمد ﷺ لهم رسالة واحدة، تتمثل في دعوة الناس إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته وحده، وهذا يقتضي وجود مشترك إنساني موحد، حاضر على الأقل في اعتقاد أن الرب والخالق واحد، وهذا يعني أن إثبات عقيدة التوحيد العقدي يستلزم فريضة التوحيد الإنساني، وقد نوهت الآيات الكريمة بهذه الحقيقة، وأشادت بها في **مواضع كثيرة، منها مثلاً:**

قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [سورة النحل: ٣٦].

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:٢٥].وقوله جل وعزّ:﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة الزخرف: ٤٥].

---

[1] سؤال الأخلاق، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، ط١=٢٠٠٠م، ص١٥٨ .

وقوله أيضاً: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ ﴾ [سورة البقرة: ١٣٦] .

وقوله أيضاً: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِ ﴾ [سورة الشورى: ١٣] .

فهذه الآيات وغيرها تؤكد أن عقيدة التوحيد هي دعوة الأنبياء والرسل جميعا، نعم قد تختلف الشرائع والأحكام بمقتضى الظروف الزمانية والمكانية، أو لدواعي التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية...، أو بسبب الخصوصية لجماعة أو أمة محددة.

لكن يبقى الأصل الجامع هو التوحيد، ويشهد لهذا قوله عليه الصلاة والسلام: «الأنبياء إخوة من علات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد»[1]، وأوضح رسولنا ﷺ هذا المشهد بقوله: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[2].

إن هداية القرآن الكريم للإنسانية بفكرة "وحدة الرسالات"، هو في الحقيقة تنبيه للبشرية إلى أصل عقيدتها التليدة عبر العصور، وفيها لفت نظر الإنسانية إلى التوحيد البشري، وهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ في خطبته في حجة الوداع :

---

[1] صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، حديث رقم: ٢٣٦٥.

[2] صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ، حديث رقم: ٣٥٣٥ / وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، حديث رقم: ٢٢٨٦.

«يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد»[1].

ولهذا فعلى الرغم من قدم عقيدة التوحيد في الناس، ومع طول المدة ووجود المفسدين لها، فلا تزال غضة طرية مهيمنة على جميع العقائد إلى يومنا هذا، وهي الأكثر انتشاراً في العالم؛ لأن نسبة الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام في هذا العالم، تمثل نسبة ٥٤ % من سكان الأرض، طبعاً مع الاعتراف بوجود اختلافات في بعض الأصول، لكن في النهاية يبقى الأصل المشترك واحدا، فكلهم يؤمنون بوجود الرب الواحد.

إن الانطلاق من قاعدة وحدة الرسالات يمكن أن يؤسس إلى فكر عالمي جديد، بما يشبه أن يكون فلسفة مشتركة لجميع الأمم والشعوب، وهي نظرة عالمية تنطلق من مقاربات إنسانية متعددة، تتعامل مع القضايا المعاصرة بكل إنصاف وموضوعية.

[1] سبق تخريجه.

خاتمة:

في نهاية رحلة البحث عن هدايات القرآن في بناء المشترك الإنساني، يمكن أن نخلص إلى **أهم النتائج، كالآتي:**

١. يراد بمصطلح "المشترك الإنساني" عدة مفاهيم متقاربة، لكن أفضلها هو أنه مجموع الأفكار (التصورات، المبادئ، المفاهيم) التي يتفق أو يتوافق ويتواطأ الناس، كلّهم أو جُلّهم إلا ما شذّ، على القول بها فطرة وعقلاً واجتماعاً، وما يترتب عليها من حقوق وواجبات.

٢. هناك الكثير من النماذج والأمثلة في القرآن الكريم تؤسس إلى وجود قواعد إلهية في التعامل مع الإنسان، يمكن إدراجها تحت خمسة أصول محورية لبناء المشترك الإنساني، وهي: وحدة النوع الإنساني، والفطرة الإنسانية، والمصير المشترك، والأخلاق الجامعة، ووحدة الرسالات.

٣. إن دراسة فكرة المشترك الإنساني من خلال هدايات القرآن الكريم يعطي للباحثين زوايا جديدة، ونظرات دقيقة يمكن الاستفادة منها في قضايا متعددة تهم مستقبل الإنسانية.

٤. يعد حديث القرآن الكريم حول موضوع التقارب والائتلاف الإنساني سبقاً فكرياً فريداً من نوعه.

٥. إن دعوة القرآن الكريم إلى التوحيد العقدي غالباً ما يكون طريقاً إلى التوحيد البشري.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ط١= ٢٠٠١م.

٢. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض –السعودية، ط٢= ١٩٩٩م.

٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ط١=١٩٨٤م.

٤. النظر الشرعي في بناء الائتلاف وتدبير الاختلاف، محماد محمد رفيع، دار السلام، القاهرة، ط١= ٢٠١٢م.

٥. المسلمون والغرب والتأسيس القرآني للمشترك الإنساني، أحمد الفراك، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان–الأردن، ط١= ٢٠٢١م.

٦. المشترك الإنساني تشريع إلهي، ربيعة سحنون، مجلة إيقاظ، مجلد ١، عدد١، أفريل: ٢٠٢٠م، ص٩٦–١٠٠.

٧. التأسيس المقاصدي لمفهوم المشترك الإنساني، وائل الحارثي، مجلة المعيار، مجلد ٢٥، عدد ٦٢، ديسمبر: ٢٠٢١م، ص٢٤٣ –٢٦٦ .

٨. جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، جمع وتحقيق: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، الأردن، ط١= ٢٠١٥م.

٩. سؤال الأخلاق، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، ط١=٢٠٠٠م.

١٠. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط٢= ١٩٨٥م.

١١. إجابة السائل شرح بغية الآمل، محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق: القاضي حسين بن أحمد السياغي والدكتور حسن محمد مقبولي الأهدل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١= ١٩٨٦م.

١٢. الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، المغرب، ط١= ١٩٩٧م.